دعوته لسبيل الله

كان أبو بكر صديقاً مُقرَّباً للنبي ﷺ قبل إسلامه لذا كان أول من يعرض عليه الإسلام رغم أن الدعوة كانت سريَّة ، وبعد إسلام أبي بكر قوية العلاقة بين أبي بكر والنبي ﷺ فقد جعل أبو بكر نفسه في خدمة الإسلام ورسوله لذا قال العلماء : صحب أبو بكر النبي ﷺ منذ أسلم إلى حين توفي لم يفارقه سَفَراً ولا حَضَراً إلا فيما أذن له ﷺ في الخروج فيه من حج وغزو وشهد معه المشاهد كلها وهاجر معه وترك عياله وأولاده رغبة في الله ورسوله ﷺ وهو رفيقه في الغار قال تعالى : { ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا} [التوبة:٤٠]

وقام بنصر رسول الله ﷺ في غير موضع وله الآثار الجميلة في المشاهد وثبت يوم أحد ويوم حنين وقد فرَّ الناس .

أشهر من أسلم على يدي أبي بكر

رغم أن الدعوة إلى الإسلام كانت سريَّة خوفاً من عداء قريش للإسلام التي ظنت أن الدعوة إلى الدين الجديد خطر على مصالحها الاقتصادية والدينية والاجتماعية إلا أن أبا بكر انطلق يدعو الناس إلى الإسلام ، وكان رجلاً من وجهاء مكة وموضع ثقة واحترام أهلها ، وأكرمه الله تعالى بفضل قوة إيمانه وإخلاصه في الدعوة أن أسلم على يديه عدد من الصحابة منهم ستة من العشرة المبشرين بالجنة وهم:

١- عثمان بن عفان ، الخليفة الراشد الثالث .
٢- الزبير بن العوام .
٣- طلحة بن عبيد الله .
٤- سعد بن أبي وقاص .
٥- عبد الرحمن بن عوف .
٦- أبو عبيدة بن الجراح .

بالإضافة إلى الأرقم ابن أبي الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وأبو سلمة بن عبد الأسد وغيرهم .

ما أعظم هذا الرجل! كيف كان يؤثِّر بهذا القدر وبهذه الضخامة! لأنه كان صادقاً، ودائماً الصادق في عمله له تأثير وله خصوصية في فتح قلوب الناس، كلما كان الإنسان صادقاً يجعل الله في عمله بركة، ويضاعف له الثواب وهكذا كان أبو بكر وأرضاه.

ومن خلال هؤلاء الصحب الكرام الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق أخذ الإسلام ينتشر في مكة وفي خارج مكة ، ودخل في الإسلام أناس كثير من بطون قريش ومن مواليها خاصة، وأتباع الرسل دائماً من المستضعفين والموالي؛ لأنهم يجدون في الدين ما يعيد لهم شيئاً من حريتهم وكرامتهم وعزهم ، بخلاف أصحاب العظمة وأصحاب المال وأصحاب المكانة .

وممن اشتهروا بين السابقين في الإسلام من الموالي: بلال بن رباح وقد أسلم على يد أبي بكر ، وصهيب بن سنان ، وعمار بن ياسر ووالده ياسر وأمه سمية بنت خياط ، هؤلاء من الموالي الذين أسلموا في بداية الدعوة على النبي ﷺ وفي فترة وجيزة وصل عدد الذين سبقوا إلى الإسلام من بطون قريش إلى أكثر من خمسين نفراً في فترة يسيرة، مع

الحركة المنظمة المرتبة، التي كانت تحمل الإخلاص من قبل النبي ﷺ ومن قبل أبي بكر الصديق ، ومن قبل خديجة ، ومن قبل الصحابة الذين أسلموا في البداية، انتشر الإسلام قليلاً حتى أصبحوا أكثر من خمسين رجلاً.

أول خطيب في الإسلام

ولم يكتف أبو بكر بالدعوة السريَّة وبمن آمن على يديه إنما قرَّر أن يجهر بالدعوة رغم علمه اليقيني بمعاداة قريش لها وخطورة ذلك عليه تلك الخطورة التي قد تصل إلى القتل ، ولكن أبا بكر لم يفكِّر إلا في نشر الإسلام وإن استشهد في سبيل ذلك .

فذكرت السيدة عائشة إنه لما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا إلى الله و إلى رسوله ﷺ .

وعندما بلغ عدد المسلمين تسعة وثلاثين رجلاً ، ألحَّ أبو بكر على الرسول ﷺ في الجهر بالدعوة وإعلانها على رءوس الأشهاد فقال الرسول : " يا أبا بكر إنّا قليل " فلم يزل يلحُّ حتى وافق الرسول ﷺ وتجمَّع المسلمون كل واحد في عشيرته ، وقام أبو بكر خطيباً ورسول الله جالس ،وكان أول خطيب دعا إلى الله عزّ وجل وإلى رسول الله ﷺ.

خطب أبو بكر ودعا إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، والإيمان برسوله ﷺ وترك عبادة الأصنام والأوثان دعوة صريحة جليَّة لا مداراة فيها ولا مجاملة .

وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين ، فضربوهم ضرباً شديداً ، وهجم على أبي بكر أحد زعماء الكفر في مكة وهو عُتْبة بن ربيعة وأخذ يضربه ضرباً مبرحاً على وجهه وعلى كل جسده ، حتى كاد

أن يهلك ، ولم ينقذه إلا قبيلته بنو تميم التي دافعت عنه عصبية لا إيماناً ، كما كان أبو طالب يدافع عن النبي ﷺ ويحميه عصبية لا إيماناً ، جاءت بنو تميم فأجلوا المشركين وأنقذوا أبا بكر ، وحملوه وهو بين الحياة والموت ، وأعادوه إلى بيته وقالوا : " والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عُتبة بن ربيعة " وأخذوا يعالجون جراح أبي بكر وهم يكلمونه حتى أجابهم فتكلَّم آخر النهار ، وكان أوَّل ما قاله بعد أن أفاق : " ما فعل رسول الله ﷺ؟ " فسبَّه قومه وانصرفوا .

ولكنه لم يتوقف عن السؤال عن النبي ﷺ فسأل أمه " أم الخير " ما فعل رسول الله ﷺ ؟

قالت : والله ما لي علم بصاحبك .

قال : فاذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه .

فخرجت حتى جاءت أم جميل ، فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟

قالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن تحبي أن أمضي معك إلى ابنك فعلت ؟

قالت : نعم .

فمضت معها حتى وجدت أبا بكر مصاباً ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت : إنّ قوما نالوا منك هذا لأهل فسق ؟! وإنّي لأرجو أن ينتقم الله لك .

قال : فما فعل رسول الله ﷺ؟

قالت : هذه أمك تسمع ؟

قال : فلا عين عليك منها .

قالت : سالم صالح .

قال : فأين هو ؟

قالت : في دار الأرقم .

قال : فإن لله عليّ ألا أذوق طعاماً أو شراباً أو آتي رسول الله ﷺ فأمهلَتا حتى إذا هدأت الرِّجْل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما حتى دخل على رسول الله ﷺ فانكب عليه يقبله وانكبّ عليه المسلمون ورقّ رسول الله فقال أبو بكر : بأبي أنت وأمي ليس بي إلاّ ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي بَرّة بوالديها ، وأنت مبارك فادعها إلى الله ، وادع الله لها عسى أن يستنقذها بك من النار .

فدعا لها رسول الله ﷺ ثم دعاها إلى الله عزّ وجل ، فأسلمت فأقاموا مع رسول الله في الدار شهراً . (١)

وهذا الموقف يؤكد تفرُّد أبي بكر بدرجة الصديقيَّة من بداية الدعوة فالنبي ﷺ بالنسبة له أغلى من نفسه وحياته ﷺ .

لماذا كذَّب زعماء مكة الصادق الأمين ﷺ ؟

يقول العقاد : " يمنع الإنسان أن يصغي إلى دعوة العقائد الجديدة موانع شتى من آفات العقل والخلق والبيئة وتجتمع وتتفرق ، ويُبتلى الرجل الواحد بها جميعاً ، وقد يُبتلى بمانع واحد منها فيحول بينه وبين الإصغاء والإجابة .

يمنعه أن يجيب الدعوة إلى المصلحين غطرسة ، أو سيادة مُهدَّدة ، أو مصلحة في بقاء القديم ومحاربة الجديد ، أو ذهن مُغلَق لا يتفتح للفهم والتفكير ، أو مغامسة للشهوات تُحبِّب إليه أن يستتيم إلى العرف الذي يبيحها ويعزف عن الهداية التي تحظرها وتقف في سبيلها ، أو تعصب للعقيدة التي درج عليها ، أو شعور بقوة سلطان تلك العقيدة في

(١) راجع ابن عساكر " تاريخ دمشق " ج ٣٠ ص ٤٦ ، ٤٧

أبناء قومه ، أو جبن ينهاه أن يخرج على المألوف ويتصدى لسخط الساخطين وإن تبين طريق الاستقامة ، أو إيغال في الشيخوخة يصد الإنسان عن كل تغيير ويميل به إلى كل تواكل ومتابعة وتقليد ، أو حداثة سن تجعله تابعاً لغيره في الرأي والخليقة ، أو ذلَّة مطبوعة تلحقه بمن أذله وبسط سلطانه عليه .

فالغطرسة خلة تأبى على صاحبها أن يستمع إلى قول أو يصيخ إلى دعوة ، او يتنزل إلى متابعة إنسان ، ترفعاً عن الإصغاء قبل أن يهديه الإصغاء قبل أن يهديه الإصغاء إلى موافقة أو إنكار .

والسيادة المهددة توحي إلى صاحبها كراهة التجديد ، لأنه يحس بالبداهة أن صاحب الدعوة الجديد أولى بالسيادة إن شاع ما جدده بين الناس ، فتبطل سيادته ببطلان القديم الذي قامت عليه ، وقيام الجديد الذي نسخه وعفاه ... " [1]

فبالرغم من أن أبا بكر كان من عِلْيَة القوم ، وأصحاب المكانة والمال وهؤلاء يتردَّدون غالباً في قبول الدين؛ لأنه يساويهم بغيرهم ممن يرون أنهم دونهم ، وهم يريدون أن يمارسوا الطغيان والتسلط، والكبرياء والغطرسة على الضعفاء ، والدين يجعل الناس سواسية كأسنان المشط ولا تفاضل إلا بالتقوى .

قال تعالى : ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه ﷺ احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم، كما سأل أمثالهم خاتم الرسل ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ

(1) عباس محمود العقاد " عبقرية الصديق " دار الكتاب اللبناني ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ [الأنعام: ٥٢] ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٨]

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية روايات منها : أنها نزلت في أشراف قريش ، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، ولا يجالسهم مع ضعفاء أصحابه كبلال وعمار وابن مسعود . وليفرد أولئك بمجلس على حدة ، فنهاه الله تعالى عن ذلك . وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء الفقراء .

ولقد ذكر القرآن الكريم أن صناديد الكفر في مكة كفروا بالله كبرا وليس لأنهم يكذبون الرسول ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام:٣٣]

فأبو جهل وأبو لهب والعاص بن وائل وأمية بن خلف ، وعتبة وشيبة بني ربيعة وغيرهم لم يؤمنوا بسبب تكذيبهم للنبي ﷺ وعدم اقتناعهم بدعوته إنما حفاظاً على مكانتهم ومنزلتهم وعدم مساواتهم بغيرهم من الضعفاء والفقراء والعبيد ، والذي يدعوهم ليؤمنوا به رسولاً يرونه أقل منهم في العظمة والمكانة والقوة والغنى .

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

[الزُّخرف:٣١]

وواحد من هؤلاء العظماء أولي المكانة يؤمن بالله ورسوله بل يكون أول المؤمنين ، ويسخر نفسه وماله وأهله وكل عزيز عليه في سبيل نشر الإسلام ، بل يجعل حياته فداء للدعوة ولصاحبها هذه هي درجة الصديقية التي لا تفضلها منزلة إلا النبوة .

وأخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق " كان يوم بدر مع المشركين فلما أسلم قال لأبيه لقد أهدفت لي يوم بدر فصرفت عنك ولم أقتلك فقال أبو بكر لكنك لو أهدفت لي لم أنصرف عنك " (١)

أنظر إلى هذا الإيمان الذي هو أغلى من ابنه قرة عينه ، ولو أن أبا بكر رأى ابنه عبد الرحمن في غزوة بدر لقتله .

***

(١) ابن عساكر " تاريخ دمشق " ج ٣٠ ص ١٢٨